تهافت التيارات الأصولية والمدنية العربية المعاصرة

د.خالد الزغيبي – قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة بنغازي

ABSTRACT

The aim of this research is to focus on the fateful stalemate in which the Arab region was involved. As a result, Arab thoughts drifted in a violent struggle between two oppositions, each of whom claimed the justice of his stand point and the efficacy of his vision. By employing urgent developments on the living reality through the use of methods that would establish the required development in accordance with their contradicting allegations.

These fundamentalists shared the view that visible future should be based on the founding roots of their ancestors by following their rules and values moving from there towards to the present. This belief should be considered as the ultimate grounds for the elements of development and advancement of their society. Accordingly, it is believed that heritage alone is the basis of rebuilding their society.

On the other hand, civilians saw that the reform process required by Arab societies could not be established unless experiences and models that have proven their effectiveness in other societies are used.

المقدمة

بعد أن اجتاحت هزات عنيفة مراكز الثقل الحضاري في المنطقة العربية :" **دمشق ، القاهرة، صنعاء، ومن قبلها بغداد**"، أطاحت بمعظم أنظمتها السياسية وتركتها في حال من العبث السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري في محاولة لإعادة ترتيب المنطقة لصالح قوى اجنبية وبمعاونة قوى داخلية *، تأثر إنسان هذه المنطقة على نحو عميق بحجم ما حدث وما ترتب عليه من آثار كارثية، وهو ما وضع المنطقة العربية برمتها في مواجهة مباشرة تزامن معه تطوير معياري أفرز جدلاً فكرياً ثقافياً تجاوز على نحو كبير معظم الصيغ الحاكمة في المناشط البشرية كافة.

أنتج هذا المعترك الصعب إرباكا قيمياً في منظومة الوجود العربي برمته وهي – القيم – التي كانت تعاني أصلا جملة إشكالات ومعوقات معرفية منهجية حالت دون إنجاز مشروع نهوضها، الذي حولته الإحباطات المتتالية إلى مجرد أمنيات وجدت مكانها في صفحات الكتب والمجلات، وفي الصالونات الأدبية والسياسية وفي جمعيات النخب البرجعاجية العربية أكثر من وجودها في الواقع.

وقد برز إثر ذلك خلاف أيديولوجي انتج صراعا دموياً بين تيارات عدة أغراها فراغ السلطة أو أيلولتها للفراغ، لاسيما بين التيارات الأصولية التي ادعت إمتلاكها آليات الخروج من المأزق وأنها بحكم التجارب صارت أكثر إدراكاً لمفردات

الوصول إلى الغاية التي عجز سلفهم عن تحقيقها، وبين التيارات المدنية التي ادعت أنها لم تأخذ فرصتها بسبب الهيمنة الأوليغارشية على السلطة، وأنها وحدها تمتلك الرؤية والمنهج الكفيلين بإخراج المنطقة من مرحلة الأزمة التي عصفت بها وصولاً إلى بر الأمان.

القسم الأول : الفكر الأصولي

أولاً . الأصولية بين الدين والإيديولوجيا

تشكل الظاهرة الأصولية أكثر المسائل الفكرية اتصالاً ببنية الوعي الإجتماعي العربي عبر عصوره التاريخية المختلفة، بيد أن جملة من الأسئلة تترصدنا ينبغي الوقوف عندها في طور البحث عن إجابات توضح أو تسبر غور هذه الظاهرة، وهي أسئلة تدرج في تصاعدها حول مفردات النشأة وتشابك المصطلحات فضلاً عن الظرف التاريخي والإجتماعي الحاكم لتلك الظاهرة المتكررة تاريخياً، ولعل أكثر تلك الأسئلة إلحاحاً تلك المعنية **بكيفية تجنب الوقوع في فخ التعميم الإطلاقي للحكم بالسلب أو الإيجاب على مجمل هذه الظاهرة الفكرية ؟**

أسئلة يفترض مراعاتها بذات القدر الذي يفترض فيه تجنب ترك أثر الإجابة عنها يعمل في الخفاء بوصفه موجهاً أو دليلاً في أية عملية بحثية تروم الدقة والموضوعية ،لا سيما وأن البحث في تأصيل **(ظاهرة الأصولية الدينية)** يستدعي استحضار جملة من المعارف التي لن يكون سبرها ميسراً دون مواجهة مع الهيمنة المعرفية والدلالية التي تفرضها عناصر المعرفة الأصولية التي جرى الترسيخ لها في الفكر العربي لقرون.

تحيل الدلالة اللفظية لمفهوم **(أصولية)** بشكل مباشر إلى الجذر اللغوي **(أصل)** و"الأصل أسفل الشيء، ج: أصول وآصُلٌ، وأصُلَ، ككَرُم : صار ذا أصل أو ثبت ورسخ أصله كتأصل " **(المعجم الوسيط، ج1، 1972م، ص491)**، وهو الجذر الذي تشير إحدى أهم دلالاته إلى فكرة البدايات أو الجذور التي هي بالضرورة حال من أحوال الماضي تحل فاعليته في الحاضر وتؤثر فيه.

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع التأصيل على نحو عام هي بطبيعة الحال ليست حكراً على أحد أو على اتجاه أو مذهب معين، فهي مساحة اتسعت في التاريخ العربي الإسلامي ومثلت توجهات عديدة وتيارات مختلفة ومذاهب متباينة ومواقف متصارعة وفكراً متشعباً وغير موحد، إنها وجهة تقصدها تيارات متعددة ومختلفة ومتباينة الأهداف والرؤى والمناهج.

ويبقى السؤال الأهم : **ما الذي نريد أن نؤصل له وبأي معنى يصير التأصيل مشروعاً ؟** وفي حال العودة إلى الجذور **أين يجب أن نقف ؟ وعلى أي من الجذور يمكن البناء ؟ وهل البعد التاريخي لتلك الأصول وحدها كفيل أن يمنحها المسوغ لأن تكون أصلاً لا اختلاف فيه أو حوله؟**

هنا بالتحديد يجب أن نكون أكثر دقة في تحديد المفهوم الأكثر مقاربة لمفهوم الأصولية من بين جملة المفاهيم المتداخلة مع مفهوم الأصولية ألا وهو مفهوم السلفية، باعتباره أقرب المفاهيم التي تتناسب من حيث الدلالة مع رغبة البعض في العودة إلى الأصول حيث الأسلاف وموقفهم من القضايا المعاصرة لهم وحول آلياتهم في التعاطي معها ووسائلهم في التقعيد لها، و عليه فإن البحث عن الأصولية عبر كافة المقاربات المفاهيمية والدلالات اللغوية يحيلنا بشكل مباشر إلى مناطق دلالية تبرز خلالها فاعلية مفاهيم من قبيل (**التراث، السلف، السنن**)، فالتراث هو الإطار الحاوي للأصول التي يجري البحث عنها، وهناك رسخ (**السلف**) لتلك الأصول بما أقلها لأن تقترب من مساحة (**السنن**)، فهناك حيث يمارس الأصوليون غوصهم في التاريخ تتعدد المشارب وتكثر الموارد وتتباين في مناهجها ومقاصدها القضايا، لا سيما وأنهم سيجدون المعتزلة والأشاعرة والفلاسفة والظاهرية وفرق لا حصر لها ولا عدد وهو ما جعل المفكر (**عبد الهادى عبد الرحمان**) يتساءل " **فأيهما سينطبق عليه التوصيف أو التصنيف الحرفي ؟**." (**ص:29**) بمعنى من يطلق عليه الأصولي ، ومن أين يؤسس للتأصيل ، وأي من الأصول يمكن البناء عليه ؟

ثانياً : الأصولية والسلفية

إن مفردة السلفية بحكم صيغتها الدلالية تردنا مباشرة إلى الجذر اللغوي (**سَلَفَ**) حيث نجد أن " (**السَلَفُ**) : جمع سَالِفٍ ، وكل من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك في السن أو في الفضل، و كل عمل صالح قدمته وما قدم من ثمن على المبيع و (**في المعاملات**) : القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه، و- بيع السلم (**ج**) أسْلاف ، وسُلافٌ . .... (**السِلْفَةُ**) للمرأة : زوجة أخ زوجها وهنّ سِلفَتَانِ، (**ج**) سَلائف (**السَلِفَةُ**) من الأرض : القليلة الشجر، (**السَلَفِيُ**) : من يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة، ويهدر سواهما، (**السُلاَف**) من العسكر : مقدمتهم، (**السَلِيفُ**) : السالف، والجماعة المتقدمون، (**ج**) سُلُفٌ " (**المعجم الوسيط، 1972م، ج1، ص ص 443،444**)، ويقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : (**فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين**) (**الزخرف، 56**)، على ذلك يمكن القول إن السلفية إنما تعبر ضمن دلالاتها اللغوية عن ضرب من ضروب العودة إلى الماضي، حيث الأصول بانتظار الخلف للتعاطي معها لأحد أمرين : إما اعتمادها باعتبارها مخزوناً معرفياً تجريبياً، أو إعادة إحيائها وتفعيلها، ولعل أهم ما جعلنا نلجأ إلى هذه المقاربة بين مفردة من قبيل : الأصولية، السلفية، السنن، الطريقة، هو ما وجدناه مسوغاً في المعنى الإصطلاحي لمفهوم الأصولية.

من حيث كونه يتماهى مع عدة مفاهيم مثل : السلف، السنن، الطرق ضمن أُطر مختلفة فضلاً عن كونها متباينة، فالأصولية تنطبق على كل دعوة تحث على اعتماد (**السلف**) باعتبارهم مرجعية وترتقى بمفرداتهم إلى عتبة (**السنن**) التي ينبغي اتباعها أو السير على وفقها، وكذلك هي الطريقة التي يعمل بمقتضاها، ومن ثم جعله مبدءاً للقياس، وقد تحدد ذلك المستوى للمفهوم في الفكر العربي الحديث خلال " النصف الثاني للقرن التاسع عشر، عند فكر مدرسة المنار ومواقفها وعلى رأسها الشيخ مُحَمَّد عبده (**1849 _ 1905م**) والسيد **جمال الدين الأفغاني** (**1838 _ 1897م**)

"(**معهد الإنماء العربي، " الموسوعة الفلسفية العربية "، 1986م، ص733**) . في حين رصدنا أنه يقصد بالسلفية " الإيديولوجيا الأصولية الإسلامية، التي تقوم بإعادة تقييم وتنشيط ماضي السلف قصد الإجابة على حاجيات وطموحات الحاضر"(**معهد الإنماء العربي، " الموسوعة الفلسفية العربية ، 1986م، ص733**)، وترتكز الأصولية الدينية على ركيزتين أساسيتين هما : **إبطال التقليد ، وإعادة فتح باب الإجتهاد**، ويكاد الموقف المعبر عن مناهضة التقليد، أن يشكل عنصراً أساسياً من عناصر التشكل الأصولي، ويجد هذا الموقف مبرراته وركائزه في الفكر العربي في الخطاب القرآني الداعي إلى مناهضة التقليد، قال تعالى ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾ (**البقرة ،170**). وتجدر الإشارة إلى أن إحدى أهم الوظائف الأساسية للدين الإسلامي هي الدعوة إلى تجاوز الإقرارات القبلية إذا تعارضت مع الحق " سجل الإسلام الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين على علاّتها ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، واللاحق يفضل بما علم من الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والإنتفاع بما وصل إليه من آثارها "(**حمد عبده، 1966م، ص147**). وقد كان لهذا الموقف المناهض للتقليد أن يفضي على الصعيد المنهجي للأصولية إلى اقتراح يقضي بتحرير (**الاجتهاد**) وإعادة فتح بابه الذي كان قد أغلقه النصيون من قبل. فالإجتهاد لدى الأصوليين ينتج عن موقف أساسي وجوهري كونه يحمل وجهة نظرهم الداعية إلى اعتباره معبراً عن روح الدين، بحيث تؤثر انطفاءة جذوته في كيان الدين نفسه وطبيعته. غير أننا نتساءل : إذا كان فتح باب الإجتهاد هو مدخل التجديد في الفكر الأصولي، فهل هذا يفيد في أن الأصولية ببقاء هذا الباب مغلقاً تفقد مبرراتها ؟ وبغض النظر عن هذا فإنه يجدر القول أن مجمل الظروف والعوامل والمبررات التي أنتجت الفكر الأصولي قد ساهمت على نحو أو بآخر في رسم التصور العام للاتجاه الأصولي وتحديده، كما ساهمت في رسم معالم اختياراته المنهجية والنظرية، و يتجلى هذا بوضوح في الفكر العربي المعاصر من خلال عدة ركائز منهجية جعل منها التيار الأصولي إحداثيات عبر مسيرته الأيديولوجية وهي :

1. الموقف من التاريخانية :

إذا قيمنا الإختزال الأصولي للفكر التاريخاني العربي فإنه يكاد ينحصر في التعبير عن كونه فكراً لا يتأخر في الظهور باعتباره تحكماً ذهنياً حقيقياً، حيث يأخذ شكل الفكر الذي يعمل على " اقتطاع وإعلاء لحظة من مسلسل تاريخي ، بإنكار المسلسل جملة وتحويله إلى ظلمة وهباء "(**9**)، ويقوم ذلك التحكم ضد التاريخانية ـ حسب الأصوليين ـ ضمن منطق وسيط يكتسي طابعاً قياسياً يجعل من الإيديولوجيا أساساً مرجعياً ونموذجاً أمثلاً لقواعد التكيف، وهذا بالطبع يقتضي العودة إلى الذاكرة الأصلية التي تمكن من إضفاء الحس التاريخاني لتسوغ عملية الربط بين الماضي كمرجعية وبين الحاضر ومتطلباته وطموحاته.

الاختزالات الإيديولوجية :

إن مركزية الدين في الفكر الأصولي والقاضية بوجوب اعتباره محركاً أساسياً لكل مشروع معني بإصلاح المجتمع ، حيث قادت الفكر الأصولي إلى إحداث جملة من الإختزالات يكاد يكون أهمها على الإطلاق الإختزال القاضي : (**باحتواء الدين لمعظم الإجابات عن الأسئلة المتعلقة بكافة المناشط البشرية واقتصادية كانت أم اجتماعية أم سياسية**)، وهو ما يعبر عن موقف أساسي لدى الأصوليين يرقى إلى مصاف الأيديولوجيا، فمن منطلق الرؤية التي تحصر فهمها عن الدين باعتباره وجوداً فوقياً تتحدد أبعاده في كونها متأصلة في النفوس بالوراثة منذ أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفحة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني " (**الأفغاني، جمال الدين، عبده، مُحَمَّد، 1970م، ص61**) . أقول : من هذا التأسيس لا يمكننا على أي نحو تجاهل الأثر الإيديولوجي الجلي في موقف يدعي امتلاكه وحده كلمة المرور إلى فض طلاسم الوجود وإشكالاته.

بيد أن هذا الموقف كان من شأنه أن ينتج حالة من التعارض الجوهري مع التيار القومي في ساحة الفكر العربي، حيث يقر هذا الأخير بجوهرية الفكرة القومية في حين يعتبرها الأصوليين تعبيراً عن سوء إدراك للمشاكل الحقيقية المتنامية مجتمعياً من الصراع لصقل الذات وتطويرها، لتصبح بعد ذلك المتحدث الرسمي باسم العلم والتقنية (**خاصة تطورها**) والتي أُريد لها أن تنصهر في بوتقة الأمة، على اعتبار أن فكرة القومية إنما تعبر عن ملكة عارضة وليست جوهرية، وقد حمل الفكر الأصولي إلى جانب دعوته المناهضة للتقليد والداعية إلى فتح باب الإجتهاد مطلباً آخراً تجسد على صعيد الفكر العربي الحديث والمعاصر في صورة مشروع أو بمعنى آخر حمل سمات مشروع فكري حضاري، في إتجاه تفعيل قضايا التراث الديني ونقل قواعدها إلى الحاضر للقياس عليها والإفادة منها في قضايا العصر ضمن حالة استشرافية يقدم فيها الماضي للحاضر والمستقبل معاً دروساً وحلولاً جامعة مانعة ، ويقوم هذا التوجه الأصولي على مبدأين رئيسين :

الأول : تأصيل الهوية :

وذلك من خلال إنجاز عملية الربط بين الإنسان وتراثه، لأن ذلك من شأنه أن يؤسس للتجذر وعدم التعالي أو الإحساس بعدم جدوى التوجه المباشر للأصول التي تمثل مرجعية لا غنى عنها في التأسيس للحاضر، وتناط هذه المهمة بالمعنيين بإحداث القياس بين قواعد (**الأصول**) وإعمالها في المناشط الإنسانية بكافة صنوفها اقتصادية كانت أم سياسية أم اجتماعية .

الثاني : استيعاب إيجابيات الآخر :

ويتأسس هذا الموقف من خلال تحديد الموقف من منجزات الحاضر، لاسيما تلك التي يصدرها هذا الآخر في صورة علم وتقنية وبالجملة ثقافة، فلئن كان الغرب قد فرض سيطرته ونموذجه على أنماطنا بمنطقه التوسعي، فهذا لا ينفي أنه يمثل القوة التي استمدت أسباب انبعاثها من نجاحاتها الخاصة التي حققتها عبر مرحلة طويلة من الصراع لصقل الذات وتطويرها، لتصبح بعد ذلك المتحدث الرسمي باسم العلم والتقنية (**خاصة تطورها**)، غير أنه بالقدر الذي أثبت به الغرب تقدمه بالقدر نفسه أصبح هذا التقدم مؤشراً لأسباب تأخر الشرق عموماً ، لذلك فإن "**رصد أسباب التأخر قد أفسح المجال أمام الإقدام على الإصلاحات الضرورية التي تهدف إلى دمج المسلم في هويته المؤسسة وتنشيط النمو الاقتصادي والتقني بالبحث والإختراع والإقتباسات** " (**معهد الإنماء العربي، " الموسوعة الفلسفية العربية "، 1986م، ص 737**)، لهذه الغاية حشّد الأصوليون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الحاثة على الإنفتاح على الدنيا بالسعي إلى طلبها، ومن خلال تحرى ذلك في مؤلفات الأصوليين وأفكارهم وفيما كتب عنهم وقيل فيهم أمكن لنا رصد جملة من الركائز التي تحدد الإطار العام للتوجه الأصولي بشقيه المنهجي والفكري، من قبيل :

1. **تحمل الأصولية دعوة نصية وثوقية تتجاهل الفعل التاريخي وتقاوم معظم محاولات التغيير القائمة على الإستعارات الدخيلة** ، وتبرر رفضها ذلك بحجة أن ديننا متمثلاً في الكتاب والسنة يحمل من أسباب النهضة ما إن تمسكنا به لأمكننا من بلوغ نهضتنا، بل يعزو مفكروها إحباط المجتمعات الإسلامية إلى إهمال ذلك حيث يرون : " أن سبب انحطاط وتأخر المجتمع يكمن في التخلي عن الدين، أو التشبث بدين البدع حيث، الأخلاق و التصوف، و التقليد، و التعليم الجامد، أما تجاوز الإنحطاط فلا يتم إلا بالرجوع إلى الأصل أي إلى ما كان سبباً في الصعود " (**عبد اللطيف، كمال، 1982م، عدد17، ص ص80،81**) لذا يعتقد معظم الأصوليين أن التغيير والتطوير القائم على الإفادة من الغرب يفترض أن يكون بالقدر الذي لا يتعارض مع هذا الأصل، أما التغيير القائم على تبني الإستعارة عن الغير فهو يلاقى برفض أصولي حازم باعتباره متماهياً مع النماذج الدخيلة ومن شأنه أن يرسخ لطغيان ثقافة الآخر على ثقافة الأنا، وهذا من شأنه أن ينتج الطغيان كـ" **رد فعل الأنا ضد ثقافة الآخر، وهو ما يحدث بين ظهرانينا الآن في رد فعل السلفية على العلمانية** " (**حنفي، حسن، الجابري، محمّد عابد، 1990م، ص، 72**).
2. **تعبر عن رد فعل أيديولوجي طبقي** وهو ما يسم الأصولية بكونها أيديولوجيا دينية تحاول إجبار الماضي على إنتاج إجابات جاهزة لتساؤلات الحاضر، لذلك يجد الخطاب الأصولي نفسه وفق منهجه ـ القياسي الداعي إلى تمثل الماضي – في مواجهة مباشرة مع منافسه التاريخي حيث ينغمس في مواجهة حادة " **مع الخطاب القومي القائل بالمنطلق التاريخي والنضال المباشر** "(**معهد الإنماء العربي، " الموسوعة الفلسفية العربية "، 1986م، ص، 738**).

3. **تبرز الأصولية** بوصفها أحد أشكال النضال الفكري المعاصر المناوئ للتدخل الأجنبي بوجوهه المتعددة سواء الإمبريالي أو الاقتصادي أو الثقافي، كما تقف بالمرصاد لكافة الإستطالات الإقليمية التي تحمل دعوات مشبوهة لقيام قوميات مستقلة كالفرعونية، و القبطية، و التونسية، و البابلية، و البربرية وبالجملة العربية.

بناء على ذلك فإنه يمكن القول إن الأصولية قد تكون مغرية في مستوى أطروحاتها من حيث حمل لواء الدعوة إلى الأصالة والتجذر والحفاظ على الهوية ، غير أن هذا لا يمنع كون دعوتها تلك قابلة للمحاججة ، وهذا ما يكشفه منهجها في الإستلهام الديني فهي حين تستلهم الماضي إنما تستلهم منه ما يدعم موقفها، إنها تستلهم الماضي كما ينبغي أن يكون، أو بالأحرى تستلهم الماضي كما تريده لا كما هو بإشكالاته وتعقيداته ومستويات تعقيده وتقعيده وتضع ملابسات وظروف إنتاج القضايا وأحكامها خلف ظهرها ، فضلا عن تقديمها للبعد الروحي كونه عاملاً وحيداً في مسألة إعادة البناء المزمع إنجازها، ولعل هذا ما يجعل المبادئ الأصولية مبادئ مبسترة وليست تاريخية في الآن ذاته، لذا فهي لا تتعدى كونها أيديولوجيا تؤسس لنفسها من خلال استدعاء ما يدعم طروحاتها من قضايا التراث متعددة المشارب، لذا فهي تقترب إلى حد كبير من وصف **مُحَمَّد عابد الجابري 1982م** حيث يرى أنها : " **لا يمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث وهو الفهم التراثي للتراث، التراث يحتويها وهي لا تستطيع أن تحتويه لأن التراث يكرر نفسه** " ص18).

القسم الثاني : الفكر العصروي

أولاً : حلم العصرنة

يبدو أن ما يسمى بالزمن الإمبريالي الذي يشار إليه في الفكر العربي الحديث والمعاصر كونه زمن الهيمنة العسكرية والاقتصادية الغربية على مقدرات الأمة العربية ، انسحب كذلك على الجوانب الفكرية والثقافية العربية ليمارس هيمنته بشكل أكثر تأثيراً وفعالية، فقد حمل هذا الزمن صدى لأغلب التيارات الفكرية والفلسفية المتصارعة على الساحة الأوروبية المتمثلة في : الليبرالية ، الوجودية ، الداروينية ، الوضعية ، الماركسية ، الإشتراكية ، حيث وجدت تلك المناهل مناصرين لها فضلا عن تمثلها والإعتداد بها من قبل بعضهم في الفضاء الفكري العربي ، بل وجدت كذلك من تحمس لها باعتبارها أبدع ما أنتجه العقل الإنساني، ولعل الفراغ والإضطراب الفكري الذي كانت الساحة الفكرية العربية تعاني منه جراء الركود الفكري والثقافي الذي خلفه المستعمر العثماني وغيره من هيمنات لاحقة قد وفر المناخ المناسب الذي هيأ الأجواء لتقبل كل وافد فكري ، مع تجاوز سبر غوره وتقصى مناهله ومقاصده أو حتى النظر في ظروف إنتاجه .

في هذا الوقت الذي أصبح فيه حلم (العصرنة) بديلاً لا غنى عنه للخروج من هوة التخلف التي طغت على معظم مستويات الحياة العربية مادية كانت أم فكرية ، وحيث أخفق الخطاب الأصولي الذي رافق النهوض العربي في طرح آليات الخلاص من واقع التخلف برزت فئة من المثقفين العرب حاملة لواء رؤية جديدة للإصلاح مغايرة تماماً للرؤية

الإصلاحية الأصولية ، وهي رؤية مشبعة بتراث الغرب الليبرالي أو بالعقيدة الليبرالية الغربية التي " **تشكلت في الفكر الغربي الأوروبي ابتداء من القرن السادس عشر وما زالت تتلون بأشكال مختلفة ومتعددة إلى يومنا هذا** "(**عبد اللطيف، كمال، 1982م، عدد17، ص87**)، وقد تبلورت هذه الرؤية في الفكر العربي المعاصر في صورة تيار فكري يرفع لواء (**العصرنة**) يصدر خطابه الفكري عن موقفين:

الأول : موقف من العصر

يمثل قراءة نقدية منفتحة على اسباب التخلف العرب الحضاري في حين تبقى قيم، وصياغات، ومنجزات، وآليات العقل الأوروبي في مواجهة العصر- من وجهة نظرهم - هي المخلص والمنقذ المتاح والضروري للخروج من واقع التخلف المأزوم الذي هيمن على التفكير والواقع العربيين.

الثاني : موقف من الخطاب الأصولي :

وهو بمثابة شهادة حول إخفاق الخطاب الأصولي في طرح الحلول المناسبة لتجاوز التخلف، باعتبار خطاباً يعبر، كما يرى عبد اللطيف (**1982م، ص 87**) عن " **مشروع إصلاح تقدمه الفئات الناشئة، الطبقة البرجوازية (الأعيان والصيارفة والكتبة والمترجمون) أي كل أولئك الذين أفرزهم الزمن الإمبريالي حسب مقتضياته التاريخية السلبية والإيجابية** "، وفق ذلك يبرز الحاضر العربي وكأنه أكثر ثقلاً من الماضي، فهو نقطة المبتدى والمنتهى وجودياً ومعرفياً لا سيما وأن انسحاب هذا الموقف المشبع بغربيته على صعيد التناول العربي لقضية التخلف الحضاري، من شأنه أن يفضي إلى إدانة آليات الأصوليين ونجاعة مناهجهم في النهل من الأصول، فضلاً عن أن هذا الإخفاق قد يؤسس لتطرف فكرى يسعى بعضهم من خلاله إلى التشكيك في الأصول ذاتها باعتبارها " **أُس الإشكالية التي تمثل في العالم العربي ينبوع التخلف الحضاري**" (**تيزيني، طيب، 1979م، ص : 125**)، والنزعة المدنية تتجاذبها اتجاهات فكرية تتفق حول نقاط وتختلف على أخرى، بيد أنه يمكن حصر المساحة التي تتحرك فيها على الصعيد الفكري العربي ضمن قضايا وموضوعات محددة من قبيل : مسألة الحداثة، ومطلب المعاصرة، وموضوعية التقدم والتطور، وقضايا الحقوق والاعتبارات الشخصية والاجتماعية، وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالحاضر العربي وهمومه وهواجسه : الإجتماعية والفكرية والثقافية، والواقع أنه من خلال رصد مفردات التيار المدني بآفاقها المختلفة بدءاً من تعظيم مطلب العقلانية مروراً بإعلاء الوضعية وتقديم قيم الديمقراطية والحرية وقضايا الحقوق والواجبات وصولاً إلى تمجيد الإنسان وتحقيق المنفعة الدنيوية القصوى، تكاد هذه المفردات المعرفية ذات المنشأ الليبرالي تخترق معظم - إن لم يكن كل - النتاج الفكري للمدنيين العرب من حملة لواء العصرنة، حيث غدت تلك المفردات بمثابة ركائز فكرية ينشط في إطارها الفكر المدني العربي متخذا من النقد والإصلاح مدخلاً وسبيلاً.

وبالعودة إلى مطلب العصرنة الذى أفرزه التيار المدني العربي وموقف دعاته من قضية استلهام الأصول ، يمكن القول : إنه بالقدر الذي ركز فيه الخطاب الأصولي على الدين أو بالأحرى (النقل) باعتباره شرطاً أساسياً من أشراط الولوج

إلى العصر بالقدر ذاته ركز المدنيون على العلم ومنتجاته باعتبارها من منجزات (**العقل**) وتجلياته، فهم يرون أنه من غير الممكن " الوصول إلى المعاصرة في غياب تمثل مكتسبات العلم، وتجاوز كل الأوجه العقائدية للتراث (**عبد اللطيف ، كمال 1982م، عدد17، ص87**) والأمر هنا قد يفهم وكأنه دعوة مبطنة للانفصال عن قيم التراث، بمعنى الحد من النهل من المعطى التراثي بحجة أنه لم يكن معيلاً يمكن الركون إليه في إنجاز فعل العصرنة، وإن كان هذا الأمر ليس دقيقا فهذا لا ينفى الإستعانة بقيم الآخر الذي تم اختزاله في التحضر والتقدم العلمي والتقنى، بيد أنه إذا كان التيار الأصولي العربي قد حمل دعوة مفادها (**الوصل**) مع التراث وفق مستوياته القيمية، فإن التيار العصروي يحمل دعوة مفادها (**الفصل**) مع قيم التراث ضمن رؤية التماس طلاب العصرنة جذورها عند (**ميشال فوكو**) فيما ينعته بـ (**القطيعة معرفية**) مع الماضي بكل ما فيه، حيث يصعب كما يرون " أن تتحقق الحرية ولا يمكن ولن يتحقق الإيمان بالعلم إلا بالانفصال عن نمط الإنتاج السائد أي المناداة بالتصنيع والقضاء على الإستبداد السياسي أي تحقيق الديمقراطية والإنفصال عن المعرفة القديمة " (**عبد اللطيف، 1982م، ص87**).

ويتجلى مطلب العصرنة من قبل مستشرفي المدنية في إطار دعوة حدية توجه نقداً عنيفاً للتيارات الفكرية المناوئة والتقاليد الاجتماعية السائدة والقيم التراثية الجامعة، باعتبار أن مثل تلك القضايا تسهم بشكل مباشر في إبقاء العقل قيد التكبيل فضلاً عن كونها تحد من إمكاناته.

ثانياً : قواسم مشتركة

لعل بإمكاننا القول أن القاسم المشترك الذي يلتقي عنده كلا التيارين السلفي والعصروي رغم اختلافهما الجوهري، هو تلك اللحظة الضبابية التي يجتمعان عندها فيما يتعلق بنسقية التفكير والرؤية المستقبلية، ولئن قدر للتيار العصروي الإفلات من ضبابية المشهد بما عرضه من خطوات جريئة تجاوز من خلالها المألوف.

بيد أن هذا لم يكن كافياً وحده لإنجاز المهمة التى تكفلوا القيام بها، وبالقدر الذي بقى فيه السلفي العربي محكوماً بهاجس قيم تراثه الذاتي، بالقدر نفسه ظل التيار العصروي العربي محكوماً بهاجس القيم الإنسانية التي تحتل مركز الصدارة فيها قيم العقل الأوروبي الذي يقدم نفسه بوصفه نموذجاً للإنسانية جمعاء وإطاراً لكل تمثل مستقبلي، ويقدم العصرويون العرب أنفسهم ضمن هذا الإطار بصفتهم أصحاب اتجاه يحمل معالم وسمات التحرر الفكري والاجتماعي عبر ما (**يمتلكه**) من أفكار وما يقترحه من مناهج تقود ـ حسب وجهة نظرهم ـ المجتمع العربي شطر الحداثة والتقدم والمستقبل ويرتقي بالفكر العربي إلى مصاف التطوير والتحديث.

هكذا ينظر التيار العصروي العربي إلى قيمهِ التراثية وفق رؤية ذاتية تنطلق " **من الحاضر الذي يحياه حاضر الغرب الأوروبي ، فيقرأه قراءة أوروبية النزعة أي ينظر إليه من منظومة مرجعية أوروبية ، ولذلك فهو لا يرى فيه إلا ما يراه الأوروبي**" (**الجابري، مُحَّد عابد، 1982م، ص19**). غير أن الإشكال الذي يواجه الموقف العصروي لا يتجلى في نقده المستمر لسلبيات الواقع التخلفي العربي المعاش، إنما في البدائل التي يطرحها ، لاسيما وأن تلك البدائل ـ وهي

غربية في معظمها ـ قد تم فصلها وعزلها عن قيمها وامتداداتها التاريخية والإجتماعية المؤسسة لها، بمعني إحداث قطيعة بين البديل المقترح وبين جذوره وظرفه الخاص الذي أسهم في إنتاجه، وهو ما يشير إلى أن هذا البديل سيظل فاقداً للخبرة التاريخية عبر مساحات من الاختبار والتقصي، ما من شأنه أن يفقده فعاليته في ظرف اجتماعي مغاير وخبرات تصل في اختلافها حد التناقض.

وهنا يتجلى حجم الإنبهار بالعقل الأوروبي ومنجزاته، ولئن كان هذا يعبر عن تطلب وتطلع مشروعين، بيد أن هذه المشروعية ما تنفك أن تزول " بالتنكر للتراث الثقافي العربي أو المناداة ـ كما تفعل النخبة ـ بضرورة حدوث **(قطيعة منهجية)** كاملة معه كشرط لتحقيق التحديث والحداثة" **(مودة، عبد العزيز، 2001م، ص31)** . وكم يكون الإختيار سهلاً لو أمكن غض النظر عن بعض الحقائق، ولم لا ؟ وقد بلغ الإنبهار بالعقل الأوروبي حداً جعل المدنيين العرب من طلاب العصرنة يتجاهلون نقائص الحضارة الغربية مع علمهم بهذه النقائص وكأن " إيمانهم بتفوق العقل الغربي ونجاح المجتمع الغربي بلغ حد الإيمان بمقدرتهم على التغلب على جميع المشكلات، وكأن التفكير في نقائص الحضارة الغربية يجب أن يؤجل إلى أن نصبح جزءاً من هذه الحضارة بالفعل "**(شكري عياد، 1993م، ص45)**.

وفق ذلك يبقى الحديث عن خطاب العصرويين العرب بصفته خطاباً تجديدياً فاعلاً في الفكر العربي المعاصر في حاجة إلى نقاش مستفيض ولا يمكن على أي نحو أخذه على علاته لا سيما وأن إحداث قطيعة معرفية نهائية بين الحدث وبين الماضي المنتج له سينتج وضعاً من شأنه طي كل الصفحات المتعلقة بذلك الحدث، وبما تحتمله وتحتويه تلك الصفحات من خبرات تاريخية ومرجعيات اجتماعية، ومن ثم تتم كتابته على صفحة بيضاء وفق تجربة لا علاقة تربطها بتلك الصفحات سوى ما مارسته عليها من بتر أفرغها من محتواها ومضمونها.

وعليه فإن موضوعات مثل : الثقافة الخاصة ، التجربة الإنسانية، المرجعية الاجتماعية، تظل موضوعات مهملة ولا مجال لمناقشتها ضمن المساحة الحيوية للفكر المدني العربي ، فضلاً عن أن أي عملية تقصي للعوامل المؤسسة والعميقة التي سمحت لقيم ما دينية كانت أو اجتماعية أو تاريخية بالإستمرارية لعصور طويلة رغم ما أحاط بها من تبدلات ورغم ما اجتازته من اختبارات، كل ذلك لا يعتد به بوصفه مرتكزاً مفصلياً أو كعلامة فارقة يفترض الوقوف عندها أو حتى مناقشتها، ذلك أن الأساس الوحيد الذي يعتد به المنهج المدني هو " **التقاط السلبيات المتفاقمة في ظل التطبيق العملي لهذه القيم لكي يُصار إلى نتيجة تطالب بالتخلي عنها تماماً وإعدامها والإنتقال فوراً إلى الطرف البعيد المقابل لطرح البديل** "**(شفيق، 1999م، ص123)**.

وتجدر الإشارة إلى تلك الحالة الفصامية القائمة بين المشروع العصروي العربي وبين رؤياه المجانية الجاهزة التي لا تكلف نفسها عناء ترتيب المقدمات وصولاً إلى نتيجة تلزم عنها فـ " **المشروع قائم على السلب ولم يُبن إيجابياً من خلال النقد ولم يأت من خلال مقدمات تسمح بالوصول إليه سوى إعدام النقيض**" **(شفيق،1999م، ص123)**. وهو ما يحيل المشروع برمته إلى مصاف القفز المفاجئ في الفضاء أو الخروج المتسرع من تأمل عقلي بحت.

هكذا .. يمكن القول إن عملية استعارة المنهج بوصفه آلية إنسانية قد لا تشكل خطورة أو إشكالية في حد ذاتها، ولكن الخطورة أن ينسحب ذلك المنهج على المعيار، فتصبح الدعوة إلى الإفادة من عناصر التاريخ الذاتي دعوة غير منطقية، ويصير التأصيل عبر الإرتكاز على منجزات الآخر سبيلاً وحيداً، وهنا يصبح اتجاه تغريب العالم غير ممكن، ولعل هذا ما جعل البعض يصف هذه الدعوة كونها تكشف عن " استلاب للذات خطير، الذات لا بوصفها حاضراً متخلفاً وحسب بل أيضاً وهذا هو الحديث عن العصرنة أو الحداثة ذو طابع استحواذي يعمل على صبغ كل تمثل فكري بالصبغة الأوروبية، وكأن المطلوب هو تعزيز مركزية العقل الغربي والأكثر والأخطر بوصفها تاريخاً وحضارة " **(معهد الإنماء العربي، 1986م، ص، 312)**، وقد يجوز لنا هاهنا أن نتساءل : ألا يحمل فكر هذا هو معياره وتلك هي منهجيته، مخالفة صريحة لمسيرة التاريخ الإنساني ؟. أوليس ثمة بدائل تتيح عملية الولوج إلى العصر دون الإنغماس الفج في قيم الماضي أو القفز المباشر إلى قيم العصر ؟.

لا شك أن عفوية السؤال لا تعفيه من تحمل تبعاته، بيد أن فكرة البدائل تبقى حاضرة في الذهن كعلامة طريق يهتدي بها من لا يريد أن يفقد أثره ولا يريد أن يتخلف عن واقعه، في خطوة تبدو ضرورية لإعادة إعمار الذات.

الخاتمة

هكذا أفرز المأزق المصيري الذي تورطت فيه المنطقة العربية ومن ثم الواقع والفكر العربي صراعاً عنيفا بين تيارين متضادين، ادعى كل منهما عدالة موقفه ونجاعة رؤيته في توظيف التطورات الطارئة على الواقع المعاش عبر الإستعانة بمناهج من شأنها أن تؤسس للتطور المطلوب حسب ادعاءات الفريقين.

فقد أصر الأصوليون أنه بالعودة إلى الجذور المؤسسة والوقوف على القواعد التي شيدت هناك والإنطلاق من عندها صوب الحاضر ومن ثم المستقبل يمكّن تحقيق نهضة وتطور حقيقيين طال انتظارهما، على اعتبار أن عناصر التطوير والنهوض تكمن هناك في التراث وحده ولا يمكن إعادة بناء المجتمع دون الرجوع إليها، وما وجه القصور ـ حسب ادعاءاتهم ـ الذي وقعت فيه الأنظمة السياسية التي جرى إسقاطها سوى نتيجة لسعة الهوة بينها وبين تلك الأصول والجذور ، منطلقين من قاعدة ترى أنه **(لا صلاح لأمر هذه الأمة إلا بما صلح به أمر أولها)**.

في حين رأى المدنيون أن عملية الإصلاح التي تتطلبها المجتمعات العربية لا يمكن لها أن تتأسس مالم تتم الإستعانة بالخبرات والنماذج التي أثبتت نجاعتها في مجتمعات أخرى، ومن ثم تطويرها ـ أو حتى خفض سقفها ـ لجعلها تتناسب مع طبيعة المجتمع العربي مع الاحتفاظ بالقيم التراثية التي تتناسب مع العصر ولا تؤثر في النهوض المجتمعي.

في ظل هذا الجدل المعرفي / المنهجي ، وجد كلا التيارين نفسه في مأزق، فالأصولي التقليدي الذي اتجه صوب القواعد التراثية باعتبارها المنجد وجد هناك تنوعاً وتشعباً ملفتاً، فعلى أي أرضية يجب أن يقف ومن أي نبع يجب أن ينهل ؟، وهل سيحقق له الانطلاق من حيث نهل اتصالاً آمناً بالعصر؟، أما المدني التجديدي الذى يرى أنه لا ضير أن ننهل

من تجارب الآخرين والإستعانة بنماذجهم التطويرية والحضارية دون تخصيص. فقد رأى أن تلك التجارب يمكن أن تمدنا بعناصر إعادة البناء ومن ثم إعادة إعمار الذات والمجتمع وفق مناهج أثبتت جدواها هناك عندهم، غير أنه وجد نفسه أمام رؤى متعددة ومناهج عديدة أفرزتها تجارب مختلفة لأمم مختلفة ووفق بنى ثقافية وحضارية مختلفة، فأي منها يجب أن ينتقى ؟، وعلى أي قاعدة يجب أن ينتقى ؟، وعلى أي قاعدة يمكن تطويع منجز الآخر لصالح الأنا ؟، كما أنه واجه السؤال الأكثر إلحاحاً وهو ما إن كانت نجاعة نموذجاً ما في مجتمعه تضمن بالضرورة نجاعته في مجتمع آخر ؟

ورغم كل التباين والاختلاف بين الفريقين المتنافسين ، بقي العامل مشترك بين الفريقين هو رفض واقع التخلف والتأزم وعدم الرضا عنه والسعي إلى إصلاحه بغض النظر عن اختلاف الرؤى والمناهج والأيديولوجيات.

* * * * * * * * * * * * * * *

الهـوامـش

أولا : المصادر

1. (*) تصريح كوندريسا رايس بفكرة الشرق الأوسط الجديد وإشاعة الفوضى الخلاقة.

https://www.youtube.com/watch?v=C9NN-SydvGo

2. 2تصريح قائد قوات حلف الناتو ويسلي كلارك أنه استلم أمر بالاستعداد لغزو **7** دول عربية.

https://www.youtube.com/watch?v=JVXqc5v6ruw

3. الصحف الأمريكية تكشف مخطط تقسيم المنطقة العربية ، مقال للعقيد متقاعد بالجيش الأمريكي **(رالف بيتر)** نشرته مجلة : أرمد فورسيس جورنال عام **2006م** بعنوان / حدود الدم.

https://www.nmisr.com/vb/showthread.php?t=619328

4. تصريح **(هيلاري كلنتون)** بأنهم هم من صنعوا الإرهابيين الذين يعبثون في المنطقة العربية.

https://www.youtube.com/watch?v=L_nK4UFV5KE

5. التدخل المباشر من رئيس الولايات المتحدة **(باراك أوباما)** واصداره الأوامر إلى رؤساء الدول التي شهدت أحداث شغب وخروج على الحاكم بضرورة مغادرة السلطة.

https://www.youtube.com/watch?v=dtaxrnSpQN8

6. التدخل المباشر من المفكر الفرنسي اليهودي الأصل **(برنارد هنرى ليفي)** في الشأن الداخلى الليبي باجتماعه وطلب دعم موقفه وتأييده من قبل من نصبوا أنفسهم أعيان ليبيا بعد انتفاضة فبراير **2011م**.

http://www.bernard-henri-levy.com/les-61-chefs-de-tribu-de-libye-parlent-suivi-de-le-decryptage-de-lappel-par-bernard-henri-levy-18305.html?fbclid=IwAR2IFKA-xYkAjrISwf-WL0k3cX2vcrne9CSjBuCbAM79u3x51qWVAtYJROc

ثانياً : المراجع

- **حنفي، حسن، الجابري، مُحَمَّد عابد** : " حوار المشرق والمغرب"، **1990م**، ط : 1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- **عبد اللطيف، كمال**: " الخطاب النهضوي المعاصر : إشكالياته الرئيسية ومفاهيمه الكبرى"، **1982م**، ع 17، مجلة الفكر العربي، بيروت.
- **الأفغاني، جمال الدين، عبده، مُحَمَّد** : " العروة الوثقى"، **1970م**، ط : ب، بيروت **دار الكتاب العربي**.
- **عبده، مُحَمَّد** " رسالة التوحيد "، **1966م**، ط : 2، القاهرة، **دار المعارف**).
- **سورة** 170.
- **معهد الإنماء العربي**، " الموسوعة الفلسفية العربية "، **1986م**، ط 1، م الثاني، القسم الأول، ب ن، معهد الإنماء العربي.
- **الزخرف**، 56.
- **عبد الرحمن، عبد الهادي** "حول طبيعة الخطاب العربي التراثي"، **مجلة الكاتب العربي، 1992م**، ع 2، طرابلس.
- **شفيق، منير** : " في الحداثة والخطاب الحداثي "، **1999م**، ط : 1، بيروت _ الدار البيضاء، **المركز الثقافي العربي**.
- **عياد، شكري** :"المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين"، **1993م**، الكويت، **سلسلة عالم المعرفة**.
- **حمودة، عبد العزيز** : "المرايا المقعرة : نحو نظرية نقدية عربية ،**2001م** الكويت، **سلسلة عالم المعرفة**.
- **الجابري، مُحَمَّد عابد**، "نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي"، **1982م**، ط 2، بيروت، **دار الطليعة**.
- *تيزيني، طيب* : "من التراث إلى الثورة : حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي"، **1979م**، ط : 3، بيروت، **دار الجيل**.
- **مجمع اللغة العربية، 1972م**، "المعجم الوسيط"، ط 2، الجزء الأول، مصر، **دار المعارف**.

* * * * * * * * * * * * * * *